القائد العثماني سنان باشا وجهوده في استعادة اليمن وتونس ١٥٦٨ - ١٥٧٤م

د. رابحه محمد خضير عيسى الجبوري
جامعة الموصل / كلية الآداب
قسم التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أدرك العثمانيون، وهم القوة الإسلامية الجديدة التي برزت منذ القرن السادس عشر الميلادي أن عليهم الحفاظ على أجزاء كبيرة من البلاد العربية . بمشرقها ومغربها . من الخطر (الفارسي . الأوربي) الذي بات يهددها باستمرار، ولا سيما بعد سقوط الدولة المملوكية في عام ١٥١٧ . وقد تمكنت الدولة العثمانية من فرض سيطرتها على أجزاء واسعة من البلاد العربية كانت اليمن وتونس إحدى تلك الأجزاء، لكن انشغال الدولة العثمانية . في تلك المدة . بمجابهة الخطر الأوربي من جهة وفتوحاتها من جهة أخرى جعلها تفقد جزءاً من تلك المناطق التي سيطرت عليها كاليمن في المشرق وتونس في المغرب، فوجب عليها استعادة تلك الأجزاء ولا سيما بعد التهديد البرتغالي للمياه العربية الجنوبية والخليج العربي، والتهديد الأسباني في تونس وسواحل المغرب العربي، لذلك أعدّت الدولة العثمانية حملة بحرية كبيرة بقيادة سنان باشا أحد أشهر قادتها في ذلك الوقت والذي تمكن خلال المدة ١٥٦٨ . ١٥٧١ من استعادة السيطرة العثمانية على اليمن على الرغم من ما واجهته من صعوبات بالغة ولا سيما من الزيديين الذين رفضوا الوجود العثماني في اليمن.

كما قامت الدولة العثمانية في عام ١٥٧٤ بإرسال حملة بحرية أخرى إلى تونس لتخليصها من الوجود الأسباني، والتي قادها سنان باشا أيضاً، الذي تمكن من فتح تونس وطرد الأسبان منها تماماً.

ومما سبق يتبين أهمية هاتين الحملتين كونهما من الحملات المهمة في تاريخ الدولة العثمانية ولكون قيادتها جاءت لقائد واحد يعد من أشهر قادة الدولة العثمانية الذي استطاع بكفاءته وقدراته العسكرية من إعادة السيطرة العثمانية على اجزاء كانت قد فقدتها في المشرق والمغرب خلال المدة ١٥٦٨ . ١٥٧٤ .

– سنان باشا حياته والمناصب الت ي تولاها:

قليلة هي المصادر التي تناولت أصل وحياة سنان باشا، فقد ذُكر أنهُ من أصل ألباني، إذ كان والده يعمل فلاحاً في منطقة دبرة [١] . في حين تشير بعض المصادر أنه كان إيطالياً نصرانياً واسمه (سيبون سيكالا) وقع في أسر الأتراك فأسلم وحسن إسلامه، وقد أراد البابا كليمنصو الثامن إعادته إلى النصرانية عن طريق بعض أقرباء الوزير من النصارى ولكنه فشل، فلجأ إلى امه وأخيه، إلا أنه لم تفلح أم الوزير سنان باشا في استمالة ابنها، فقال لها البابا أنه يرجورجوع سنان لا إلى أمه الدموية فقط بل إلى أمه الروحية الكنيسة الكاثوليكية[٢]. كما قدم له البابا من خلال رسالة بعثها إليه عام ١٥٠٣ يغريه فيها لتنصيبه ملكاً على البلاد التركية التي يفتحها شرط تحوله وتحول أهل تلك البلاد إلى العقيدة الكاثوليكية، ويذكره أيضاً بأنه إذا ثار على السلطان يكون الإمبراطور وملك أسبانيا وجميع ملوك المسيح ظهراء له، إلا أن البابا خاب امله في ارتداد سنان باشا عن الإسلام[٣].

قَدِمَ سنان باشا إلى الدولة العثمانية مع مجموعة من الشباب المجندين تحت نظام الدوشرمة العثماني[٤]، ولمهارته تدرج في مناصب الدولة، وأصبح في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ . ١٥٦٦) (جاشنكير باشي) أي كبير حملة الكأس في القصر السلطاني، ثم ترقى فيما بعد إلى رتبة (مير لواء) ملطية وقسطموني وغزة وطرابلس الشام وأرضروم وحلب[٥] .

وفي عام ١٥٥٥ ترقى سنان باشا إلى رتبة أميرال حينما كلفه السلطان سليمان القانوني بقيادة حملة بحرية ضد مملكة صقلية التي كانت تسيطر على مدينة المهدية التونسية آنذاك[٦]، وعلى الرغم من فشل الحملة في أداء مهمتها، فإن سنان باشا اتجه بأسطوله نحو طرابلس الغرب التي كان يسيطر عليها فرسان القديس يوحنا[٧]، وبعد معارك كبيرة بين الطرفين تمكن سنان باشا من فرض السيطرة العثمانية على طرابلس الغرب في ١٤ آب ١٥٥١[٨].

عُيّنَ سنان باشا في عام ١٥٦٨ والياً على مصر وقائداً للحملة التي توجهت لاستعادة اليمن . التي سنتناولها بشيء من التفصيل في موضوع بحثنا هذا . وبعد أن تم لهُ ذلك، أعيد تنصيبه والياً على مصر مرة أخرى عام ١٥٧٢[٩].

لم يمضِ وقت طويل على بقاء سنان باشا في مصر حتى اختير ليكون قائداً أعلى للجيوش العثمانية المتوجهة لضم تونس إلى أجزاء الدولة العثمانية وطرد الأسبان منها . وهذا الشق الثاني من موضوع بحثنا . ونجح في مهمته هذه خير نجاح، ورقيَّ على أثرها إلى منصب وزير القبه (وزير ديوان) بعد أن كان الوزير السادس سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م[١٠].

تابع سنان باشا نشاطه العسكري، إذ عُيّنَ قائداً أعلى للجيش العثماني المتقدم إلى بلاد الكرج في آب ١٥٨١م وصدراً أعظم في الوقت ذاته بدلاً من أحمد باشا الذي وافته المنية، وقد تمكن سنان باشا من فتح بلاد الكرج دون اخضاعها، فأثارت له مشاكل كثيرة أدت إلى إصدار قرار بعزله في كانون الأول ١٥٨٢، ثم نفيه[١١]. ولكنه تمكن بفضل علاقاته وما قدمه من أموال أن يغير قرار نفيه ليصبح بعد ذلك والياً على دمشق في سنة ١٥٨٩[١٢].

وعلى الرغم من توليه هذا المنصب في الدولة، فإنه لم يمتنع عن قيادة الجيوش العثمانية، فكانت وجهته هذه المرة إلى جهة الغرب ولاسيما الحملة الموجهة إلى هنغاريا في عام ١٥٩٣ التي حقق فيها انتصارات كبيرة بحصوله على بعض الحصون والمعاقل المهمة للعدو[١٣].

اتصف سنان باشا بالقسوة والعناد، وهذا ما عرضه إلى الوقوع ببعض الأخطاء التي أدت به إلى النفي في بعض الاحيان، إذ نفي في سنة ١٥٩٥ بعد وفاة السلطان مراد الثالث

(١٥٧٤- ١٥٩٤) وعلى الرغم من ذلك لم تتخلى عنه الدولة، إذ لم تطل مدة بقائه في المنفى، ليختار بعد أسابيع قليلة من عودته لقيادة الحملة الموجهة إلى الافلاق، وهذا دليل على امتلاكه للصفات القيادية فضلاً عن الصفات الأخرى التي كان يتصف بها، بدليل تحفظ المبعوثين الاجانب على توليه الصدارة العظمى[١٤].

لم يوفق سنان باشا في حملته الموجهة إلى الافلاق لوقوعه ببعض الأخطاء وتقاعس ولده محمد باشا (بلكر بك الروميلي) مما تسبب في ضياع مدينة كران، فأدى ذلك الأمر إلى عزل سنان باشا من منصبه ونفيه للمرة الثالثة إلى ملغرة في تشرين الثاني / نوفمبر ١٥٩٥، ومن حسن حظ سنان باشا أن صادف وقت نفيه وفاة من خلفه في صدارته العظمى الرابعة لالا محمد باشا، فالغي قرار النفي ليعود سنان باشا ويصبح صدراً أعظماً للمرة الخامسة إلى جانب مهامه العسكرية التي لم تتوقف إلى آخر حياته حينما كان يجهز حملته ضد ارلو في هنغاريا، فداهمه الموت في ١٣ نيسان / أبريل ١٥٩٦ ودفن في استانبول[١٥]. وفضلاً عن نشاطاته العسكرية والسياسية، كانت له أعمال خيرية كثيرة في مختلف البلدان، إذ بنى عدة جوامع وربط وتكايا، وقد اشتهر بذلك حيثما حل، وقد بلغت عدد المساجد التي بناها إلى ما لا يقل عن (٤٠) مسجداً جامعاً في مناطق مختلفة[١٦]، انتهت بذلك حياة ذلك القائد القوي العنيد الذي كرّسَ نشاطه وجهده بكل اخلاص لخدمة الدولة العثمانية على الرغم مما تخللها من فترات تعرض فيها للنفي مرات عدة، إلا ان الدولة لم تتخلَّ عنه، وهذا يعني أنه كان الرجل المناسب للمناصب التي كان يتولاها في حياته .

جهود سنان باشا في استعادة اليمن وتونس (١٥٦٨ – ١٥٧٤):

اليمن قبل حملة سنان باشا:

حكم المماليك الجزء الغربي من المشرق العربي الذي يضم بلاد الشام، مصر، الحجاز واليمن حتى القرن السادس عشر الميلادي، إذ عانت تلك الاجزاء من تدهور في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، فكان لذلك الأثر الكبير على عدم قدرة المماليك على مواجهة خطر الاستعمار الاوربي الذي بات يهدد الوطن العربي في الساحل الأفريقي المتمثل في البحر

المتوسط والمحيط الأطلسي من جهة،والمياه العربية الجنوبية المتمثلة بالبحر الأحمر والخليج العربي من جهة اخرى[١٧]. فوجدت الدولة العثمانية أن المماليك أصبحوا غير قادرين على ذلك فأخذت على عاتقها مواجهة تلك المخاطر، فضلاً عن رغبتها في التوسع على حساب الدولة المملوكية، فخاضوا معركتين مع الجيش المملوكي الاولى في (مرج دابق) على الأراضي السورية في ٢٤ آب / أغسطس ١٥١٦، والثانية في (الريدانية) على الأراضي المصرية في ٢٣ كانون الثاني / يناير ١٥١٧، وكان من نتائجهما سقوط الدولة المملوكية ودخول الشام ومصر، وكذلك دخول الحجاز واليمن تحت السيطرة العثمانية[١٨].

بدأت علاقة العثمانيين باليمن بشكل غير مباشر عندما اعترفت ببقاء الأمير الجركسي اسكندر بك القرماني حاكماً على اليمن والأمير مرجان الظافري حاكماً على عدن شرط إقامة الخطبة للسلطان سليم الأول (١٥١٢ . ١٥٢٠)، وضرب السكة باسمه[١٩]، وأن يدفع حاكم عدن نصف العشور المتأتية من تجارة الهند[٢٠].

لم تستقر أوضاع اليمن في هذه المدة بسبب الصراعات التي كانت قائمة بين القادة المماليك، فضلاً عن الخطر البرتغالي الذي ظل يهدد السواحل العربية ولا سيما اليمن وعدن التي كانت تتعرض سواحلها إلى ضربات المدفعية البرتغالية ، لذلك استنجد الامير اسكندر بالعثمانيين الذين أرسلوا أول حملة عسكرية مؤلفة من (٢٠) سفينة اتجهت إلى اليمن، لكن الحملة فشلت في اقرار الأمن في اليمن والدفاع عن السفن العربية الموجودة هناك وذلك بسبب الخلاف الذي حدث بين قائدها الريس سلمان وحسين الرومي حاكم جدة[٢١].

أما بالنسبة إلى عدن، فقد فرض البرتغاليون على حاكمها معاهدة في سنة ١٥٣٠ التي تقضي باعترافه بسيطرتهم على بلاده، فضلاً عن إجباره على دفع مبلغ من المال، غير أنَّ حاكم عدن رفض هذه المعاهدة واستنجد بالسلطان سليمان القانوني لمساعدته في مواجهة البرتغاليين بعد أن أكد له دخوله في طاعته[٢٢].

وفي هذا الوقت بالذات، كان النفوذ العثماني يمتد إلى سواحل البحر الأحمر وسواحل الخليج العربي الشمالية، ليصبحوا بذلك وجهاً لوجه مع القوات البرتغالية في المياه العربية إلى جانب البرتغاليين الذين كانوا يضغطون على الهند وشواطئها الغربية[٢٣]، فتطلب الأمر . من

العثمانيين . إرسال حملة بحرية كبيرة مؤلفة من (٨٠) سفينة[٢٤]، وما يقارب من (١٠٠) سفينة نقل تحمل على متنها (٢٠) ألفاً من البحارة والجنود من ضمنهم (٧) آلاف انكشاري[٢٥]، يقودها سليمان باشا الخادم أحد أبرز القادة العثمانيين[٢٦]، دخل سليمان باشا الخادم عدن في ٣ آب / أغسطس ١٥٣٨، وكان يحكمها آنذاك عامر بن داؤد الطاهري الذي وافق على الدخول في طاعة العثمانيين أملاً في تثبيته في الحكم من جهة، ولتكون له القدرة على مواجهة البرتغاليين إذا هاجموا عدن من جهة أخرى[٢٧]، لكن سليمان باشا الخادم لم يقتنع بموقف عامر بن داؤد، واكتشف أن له علاقة مع البرتغاليين، فقتله ووضع أحد قادته حاكماً على عدن ويدعى بهرام، وحولت عدن إلى سنجق عثماني، ترك سليمان باشا الخادم فيها حامية صغيرة، ثم واصل مسيرته العسكرية باتجاه السواحل الهندية[٢٨]. لمواجهة البرتغاليين، لكن حملته فشلت في تحقيق غايتها، فعاد ليكمل مهمته في إخضاع السواحل اليمنية ولا سيما بعد نزوله في ميناء الشحر، ثم أخضع حضرموت للحكم العثماني وتقدم إلى كل من زبيد ومخا وتهامة وسيطر على هذه المناطق[٢٩].

بدأ العثمانيون في سنة ١٥٣٩ بعمليات السيطرة على اليمن وقد تحقق لهم ذلك ولا سيما بعد أن سيطروا على تعز في سنة ١٥٤٥، وصنعاء في سنة ١٥٤٧، وبذلك أصبحت اليمن مؤلفة من سنجقين الأول في زبيد والثاني في عدن إلى أن تم دمج السنجقين في ولاية واحدة يديرها والي يتم إرساله من مصر[٣٠].

وعلى الرغم من سيطرة العثمانيين على اليمن،إلا أن هذا الامر لم يخل من ظهور مقاومة يمنية لهم بمقاومة الزيديين التي قادها الإمام شرف الدين يحيى الزيدي (٨٧٧ . ٩٦٥ هـ/ ١٤٧٣ . ١٥٥٨م) في الشمال، والطاهريين وحلفائهم في الجنوب . وقد عجز العثمانيون في التقدم إلى المناطق التي يحكمها الزيديون، بينما استطاعوا القضاء على الطاهريين عن عدن . كما ذكرنا سابقاً . وقد اضطر السلطان سليمان القانوني إلى إرسال فرمان للإمام شرف الدين يضمن له إبقاء الأوضاع القائمة في اليمن على ما هي عليه، وتكليفه بإرسال القوافل إلى عدن، فضلاً عن العمل على تحقيق الاستقرار في البلاد[٣١].

لم يتوقف الزيديون عن مقاومتهم للعثمانيين ولا سيما بعد أن أرسل العثمانيون في عام ١٥٤٦ بجيشاً كبيراً تحت قيادة أويس باشا من أجل تحويل اليمن إلى قاعدة حربية لهم عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي[٣٢]. ولم يكن ذلك بالأمر السهل، إذ واجه أويس باشا مقاومة قوية من المطهر . أي الإمام شرف الذي تسلم القيادة بعد خلاف مع والده . أدت إلى مقتل أويس باشا أثناء حصاره لمدينة ذمار الواقعة إلى الجنوب من صنعاء، وكادت أن تستسلم القوات العثمانية لولا تسلم أحد ضباطها ويدعى (اوزدمير) قيادة الجيش الذي تمكن من السيطرة على صنعاء في سنة ١٥٤٧[٣٣].

كما عقد العثمانيون في عام ١٥٥٢ اتفاقية مع الإمام المطهر لإنهاء تحرشاته التي كانت تزعج العثمانيين، نصت على أن يعترف الإمام المطهر باليمن ولاية عثمانية مقابل إعطائه السلطة الكاملة والمطلقة على المنطقة الشمالية الغربية من صنعاء، إذ عُدّت هذه المنطقة القاعدة التي قامت عليها السلطة التقليدية للأسرة الزيدية[٣٤]. وبذلك توطد مركز العثمانيين في اليمن بعد سيطرتهم على صنعاء .

لم تكن اتفاقية سنة ١٥٥٢ إلا فرصة للطرفين لاستعادة قوتهما، فقد استفاد منها ازود مير في توسيع نفوذ العثمانيين في اليمن، كما كانت فرصة للإمام المطهر لاستجماع قواه ولجمع أنصار له في القبائل اليمنية لمهاجمة الحاميات العثمانية في اليمن، وقد تمكن من ذلك، وحرر صنعاء في ٩٧٥ هـ/١٥٦٨م[٣٥].

– الإعداد للحملة:

بعد سيطرة الإمام المطهر على صنعاء، قام حاكم عدن الزيدي قاسم بن شويع بثورة سنة ١٥٦٨ استهدف فيها الاستيلاء على السلطة وطرد العثمانيين من عدن[٣٦]، علماً أن العثمانيون كانوا قد سيطروا على عدن على أثر الثورة التي قام بها الطاهريون عام ١٥٣٨ حينما أرسلوا أسطولاً حربياً عبر البحر الأحمر بقيادة بيري ريس[٣٧]، وقد تمكن من السيطرة على أقاليم اليمن الجنوبية ومن بينها عدن، فأرسلت الدولة العثمانية حملة إلى عدن بقيادة خير الدين خضر ريس[٣٨]. الذي كان يخضع لتوجيهات عثمان باشا الذي عين والياً على صنعاء منذ ١٦ كانون

الأول / ديسمبر ١٥٦٧[٣٩] والذي سار بجنوده عن طريق البحر ونزلوا الأراضي اليمنية عن طريق ميناء حديدة، واحتل تعز التي كان قد أعادها الزيديون لحوزتهم قبل عشرة أشهر[٤٠].

ومن الجدير بالذكر، أن الحاميات العثمانية المنتشرة في أجزاء اليمن ظلت تتعرض إلى ضربات من الإمام المطهر وأنصاره، لذلك قررت الدولة العثمانية إرسال حملة كبيرة لإعادة السيطرة العثمانية على الأجزاء التي فقدت سيطرتها عليها تحت قيادة سنان باشا[٤١].

أحاط تعيين سنان باشا قائداً للحملة المتوجهة إلى اليمن بعض الظروف الخاصة التي توضح بجلاء المظاهر الجديدة التي طرأت على سياسة الدولة ونظمها، والتي كان لها تأثيرها في أحداث الحملة بعد ذلك، فقد صدر الأمر بتعيين مصطفى باشا اللالا[٤٢] قائداً للحملة . قبل سنان باشا . بأمر من محمد باشا الصوقللي الذي أراد إبعاد مصطفى اللالا عن السلطان لتقوية قبضته على زمام الحكم بعد أن نجح في إبعاد جميع ذوي النفوذ عن السلطان ما عدا مصطفى باشا، كما صدر الأمر بتعيين عثمان باشا والياً على اليمن .كما ذكرنا سابقاً . وسنان باشا والياً على مصر، الذي كان عدواً لدوداً لمصطفى باشا لِتَسبب الأخير في إعدام اياس باشا . أخو سنان باشا . في عهد السلطان سليمان القانوني لانحياز اياس باشا إلى بايزيد أثناء ولاية العهد[٤٣].

اختلفت الروايات حول نية كل من مصطفى اللالا وسنان باشا في قيادة الحملة[٤٤]. وعلى الرغم من ذلك حاول مصطفى اللالا أثناء وجوده في مصر اتخاذ خطوتين إيجابيتين، وأن عدتا جزءاً من خطته للتهرب من قيادة الحملة، أولهما حاول حل أزمة اليمن سلمياً، حينما أرسل إلى الإمام المطهر وعرض عليه الرجوع إلى سلطة الدولة العثمانية، والثانية الإسراع بإرسال عثمان باشا على رأس قوة كبيرة إلى ولايته في اليمن، فشل مصطفى اللالا في محاولته الأولى ونجح في الثانية حينما أرسل عثمان باشا إلى اليمن تلبية لطلب حسن باشا والي زبيد الذي أراد إرسال النجدة إليه، وقد وصل عثمان باشا إلى زبيد في كانون الأول / ديسمبر ١٥٦٩ استطاع بقوته المؤلفة من ثلاثة آلاف جندي وسبعة عشر سفينة من أن يستولي على تعز قبل أن تصل إمدادات المطهر إلى هذه المدينة [٤٥].

وعلى الرغم من نجاح مصطفى اللالا في هذه الخطوة الإيجابية التي مكنت العثمانيين من استعادة سيطرتهم على أجزاء واسعة من اليمن، لكن ذلك لم ينه الخلاف القائم بين سنان باشا ومصطفى اللالا [٤٦]. إلى أن تمكن سنان باشا من الحصول على موافقة السلطات العثمانية في قيادة الحملة بعد أن أعطي صلاحيات كبيرة ولا سيما بعد تسليمه منصب سردراً (وزيراً)، وتكليفه بتحقيق الاستقرار وتأمين الرفاه والاطمئنان لأهل اليمن [٤٧]. آنذاك عاد مصطفى اللالا إلى استانبول واسترضى السلطان ونصب وزيراً للديون [٤٨].

بدأ سنان باشا يعد العدة للتوجه إلى اليمن، إذ لا بد أن يكون الإعداد مختلفاً هذه المرة، لما لهذه الحملة من وضع خاص وأهمية كبيرة لدى الدولة العثمانية، فأن غرض الحملة هو الذي يفسر لنا ضخامتها وأهميتها في تاريخ اليمن الحديث، وقد تبلور هذا الغرض في الاحتفاظ بمدينة عدن أو السواحل اليمنية لما لها من أهمية إستراتيجية في النزاع الدائر بين العثمانيين والبرتغاليين منذ بداية القرن السادس عشر، لذلك تعد اليمن بمثابة خط الدفاع الأمامي بالنسبة لحوض البحر الأحمر، فحرص المماليك والعثمانيون على أن تكون لهم قواعد في اليمن لغلق هذا البحر بوجه البرتغاليين الذين باتوا يهددون الحرمين الشريفين بشكل خاص، والعالم العربي بشكل عام من جهة الجنوب، وقد أكد السلطان العثماني على ذلك بقوله: " إن استردادنا لمملكة اليمن وإن كان مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس، لكن جل قصدنا من ذلك إنما هو حفظ ثغر عدن صوناً للحرمين الشريفين على (من) الكفار الملاعين "[٤٩]. وذكر أيضاً: " إن ولاية اليمن فتحها قواتنا الخسروانية المظفرة، وفي الوقت الذي غدت فيه من ملحقات بلادنا المحروسة، نرى مفسداً يدعى مطهراً قد خرج علينا ومعه كثير من الأشقياء العرب واستولى على بعض القلاع والنواحي بقصد إهانة وإذلال أهل الإسلام وجماعته ... "[٥٠].

ومما سبق يتضح ما سيهيئ للحملة التي سيقودها سنان باشا، والتي أظهرت النية الصادقة والواضحة للدولة العثمانية ومدى اهتمامها في الاحتفاظ باليمن تحت سيطرتها، لذلك أوعز السلطان العثماني إلى شريف مكة للمساهمة في الحملة الموجهة إلى اليمن من خلال إرسال التجهيزات والعساكر[٥١]، وإلى جميع أمراء مصر والجونلية [٥٢] والجراكسة [٥٣]، والانكشارية

الشاووشية [٥٤] ووكيل دفتر دار الشام الشريف، وزعيم الانكشارية وسائر الزعماء وأرباب التيمار وغيرهم، ومن قد عين قبل ذلك من الأمراء للذهاب إلى اليمن[٥٥]، كما وجه السلطان أمراً إلى البكلربكية وأمراء السناجق والاقضية الواقعة لى الطريق البري إلى اليمن بأن يعينوا الحراس والأدلاء ليكونوا في خدمة العساكر الذاهبين إلى اليمن عن طريق البر[٥٦].

كما وصف النهروالي هذه الحملة بقوله: " وبالجملة فكان ديوان مصر بجميع عساكره انتقل إلى مكة (وهي في طريقها إلى اليمن) مع ما أضيف إلى ذلك من عسكر الشام وحلب وقرمان وآمد ومرعش وغير ذلك من الممالك الشريفة السلطانية بحيث لم يجتمع مثل ذلك في عهد سابق " [٥٧].

وفضلاً عن ذلك نجد أمراً سلطانياً وجه إلى أمير أمراء مصر بعدم ممانعة سنان باشا من حمل ذوي السليانات الكبيرة على المشاركة في الحملة ومن ثم مساعدته بالذخيرة والتجهيزات[٥٨]، وقد أشارت بعض المصادر إلى عدد القوات التي التحقت بسنان باشا قدرت بـ (٢٥٠٠) نفر من العساكر و (٦٠٠) جمل، فضلاً عن (٥٠) انكشارياً وصلوا من الشام، كما سمح له السلطان أن يأخذ ما يريد من المتفرقة والعربات والخليان[٥٩] الموجودين في مصر، وإذا لم يكن هذا العدد كافياً فلسجل ألفاً من الفتيان الشجعان [٦٠]. أما للمعدات والآليات الثقيلة فنقلها سنان باشا على ظهر السفن الحربية [٦١].

– سير الحملة:

سعت الدولة العثمانية إلى تهيئة كل الإمكانيات والمستلزمات لإنجاح مهمة هذه الحملة من حيث القيادة والإعداد في العدة والعدد التي لم يجهز لغيرها من الحملات في تلك المدة[٦٢]. وبعد إتمام كل ما يدعم الحملة، قاد سنان باشا الحملة من مصر في ١٧رجب هـ/ ٥ كانون الثاني / يناير ١٥٦٩م متوجهاً إلى اليمن، وقبل نزوله في اليمن ذهب إلى مكة والمدينة كعادة ولاة اليمن أثناء ذهابهم إلى ولايتهم وعند عودتهم منها، ثم وصل إلى ميناء ينبع اليمني وأنزل أغلب أفراد الحملة إلى الساحل [٦٣]، ثم توجه بعدها إلى منطقة شمال تهامة . منطقة جيزان . لإخضاعها للسيطرة العثمانية، وعند وصوله لهذه المنطقة في أول شوال سنة

٩٧٦هـ/ ١٩ آذار / مارس ١٥٦٩م استقبله رؤساء ومشايخ وسكان المنطقة فرحاً مبتهجين بقدومه، معلنين ولاءهم للسلطة العثمانية، فتعهد لهم سنان باشا بتوفير الأمن والأمان لهم [٦٤]، ولا سيما بعد هروب أميرها التابع للمطهر[٦٥].

أسرع سنان باشا بعد بقاء قصير في منطقة جيزان إلى مدينة تعز لإنقاذ موقف الحامية العثمانية التي يقودها عثمان باشا، الذي تمكن من الاستيلاء على تعز بعد وصوله إلى زبيد بمدة قصيرة لكنه لم يتمكن من السيطرة على قلعتها المعروفة باسم (القاهرة) أو (القاهرية) لحصانتها وارتفاعها من جهة، ولوصول الجيوش الكبيرة التي أرسلها المطهر إلى تعز تحت قيادة ابن أخيه محمد بن شمس الدين من جهة أخرى، والذي حاصر قوات عثمان باشا هناك، فقطعت طرق مواصلاته التي أدت إلى عدم وصول المؤن والذخائر إليه من زبيد، فاستحال على عثمان باشا السيطرة على منطقة تعز وقلعتها القاهرة لولا وصول سنان باشا بجيشه العرمرم الذي أرعب الزيديين وجعلهم يتحصنون في جبل الأغبر وبدأ بتنفيذ خطته عندما أرسل عثمان باشا مع قوة كبيرة إلى جبل الأغبر المواجه لقلعة القاهرة والذي كان محمد بن شمس الدين يتخذه مركزاً له، فتمكن عثمان باشا من مطاردة محمد شمس الدين من فوق هذا الجبل وجعله ينزل لمواجهته في سفحه، في الوقت ذاته ركز سنان باشا اهتمامه للاستيلاء على قلعة القاهرة فشدد حولها الحصار إلى أن تمكنت حاميتها إلى التسليم في ١٧ ذي القعدة سنة ٩٧٦ هـ / ٣ أيار/ مايو ١٥٦٩م بعد أن تعهد سنان باشا بتأمين حياة أفرادها[٦٦]، وعدت هذه المعركة الصغيرة التي قادها سنان باشا بداية لسيطرة العثمانيين على جنوب اليمن إذ توالت بعدها هزائم الزيديين[٦٧].

توفرت أسباب عدة حققت لسنان باشا انتصاراً سياسياً إلى جانب انتصاره العسكري، كان من ضمنها السياسة التي اتبعها مع سكان اليمن ولا سيما مع حامية قلعة القاهرة حينما وفى بعهده في تأمين حياتهم، وذلك شجعهم على الانضمام إلى القوات العثمانية، واستفاد سنان باشا من خبرتهم، مما شجع الاسماعيليين . الذين كانوا على خلاف دائم مع الزيديين لاختلاف مصالحهم . للانضمام إلى القوات العثمانية، فضلاً عن انضمام الشوافع إليهم أيضاً، لتضرر مصالحهم المادية بامتداد السيطرة الزيدية إلى أقاليمهم، كما أن نجاح سنان باشا في

هذه الأجزاء يعود إلى وجود محمد بن شمس الدين على رأس قوة المطهر في منطقة جنوب اليمن وذلك تسبب في ضعف الزيديين في هذه المنطقة، إذ لم يكن له الدراية التامة بالحروب وخدعها، كما أن قيادته للقوات الزيدية في الجنوب لم تكن على أساس خبرة ومهارة عسكرية. كل هذه الأسباب حققت لسنان باشا فرصة السيطرة على بقية المناطق الجنوبية [٦٨].

أقدم سنان باشا بعد هذه الانتصارات العسكرية والسياسية، على اتخاذ موقف سياسي هام في عزل عثمان باشا عن ولاية اليمن وعين حسن باشا . بشكل مؤقت . بدلاً عنه، وذلك بسبب الخلاف المستمر بينهما، فضلاً عن رفض عثمان باشا التوجه إلى معسكر سنان باشا لمناقشته في خطة الزحف الى صنعاء أثناء استدعائه من الاخير، فقرر سنان باشا عزله كي لا يؤدي هذا الخلاف إلى انقسام القوات العثمانية وإضعافها [٦٩].

كان استيلاء سنان باشا على مدينة تعز وقلعتها الحصينة مقدمة لتوجهه نحو عدن التي كان يعد العدة لها منذ دخوله منطقة جيزان وسيطرته على مدينة تعز، حيث جهز أسطولاً قوياً وأبحر به من ميناء مخا باتجاه عدن لمحاصرتها من جهة البحر وحتى يمنع الزيديين من الاتصال بالبرتغاليين إذا فكروا الاتصال أو الاستعانة بهم، ولا سيما أن البرتغاليين كانوا يتربصون بهذا الثغر الحصين، فلو تمكنوا منه منعوا على المسلمين سفن الهند، لذلك حرص سنان باشا على منع حصول ذلك فأرسل قوات برية وبحرية للسيطرة على عدن، وبعد حصار لم يدم طويلاً تمكن العثمانيون من السيطرة عليه في ١٥ أيار / مايو ١٥٦٩ لكنهم منو بمقتل القائد ممي (الروسي الأصل) قائد القوات العثمانية البرية [٧٠].

قرر سنان باشا بعد سيطرته على عدن التوجه للسيطرة على صنعاء، فتقدم بجيشه القوي واشتبك مع القوات الزيدية المتواجدة في جبل حُطِيش القريب من صنعاء، وحطم وحداتهم ثم استولى على ذمار أحد معاقلهم الرئيسة، وفي تموز / يوليو ١٥٦٩ اقترب جيش سنان من صنعاء التي دخلها دون صعوبة وأفشل كل محاولات المطهر الذي أراد الاحتفاظ بهذه المدينة حتى أن ابنه الهادي قتل في إحدى الاشتباكات مع قوات سنان باشا، كما أن المطهر نجا بصعوبة بالغة أثناء اشتباكات القوات العثمانية وقواته عند أسوار مدينة صنعاء والتي أوقعت

بقواته الكثير من الخسائر [٧١]. فهرب وتحصن في حصن ثلأ بحجة إشفاقه على أهالي صنعاء من معاناة وأهوال الحرب والحصار[٧٢].

وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها سنان باشا وقواته فإن الزيديين ظلوا يشكلون عائقاً أمام تقدم سنان باشا وقواته باتجاه الشمال من اليمن، كما أن التقدم باتجاه حصن ثلاء وكوكبان تطلب منه إستراتيجية عسكرية جديدة تختلف عما سبقها من معارك، لوجود عقبات طبيعية وبشرية في تلك المناطق . وقد أعاقت هذه الأمور سنان باشا عن تحقيق هدفه، لذلك ركز خطته على ضرورة الاستيلاء على الحصون المتواجدة في الطرق المؤدية إلى حصن ثلاء، ثم الاعتماد على إمكانيات الأقاليم التي يسيطر عليها في سد حاجات قواته من المؤونة التي تأخر وصولها إليه لصعوبة الطرق وبُعدها [٧٣].

توجه سنان باشا إلى حصن ثلاء وكوكبان، وفي هذا الوقت قلّت مؤونة القوات العثمانية، فوقع سنان باشا بخطأ كبير حين أباح للوالي حسن باشا الإغارة على القرى وأخذ كل ما بها من غلال ومؤونة لتوزيعها على الجيش، ما أدى إلى تذمر اليمنيين من هذا الأمر بل انظم الكثير منهم إلى جانب المطهر في حربه ضد العثمانيين، وقد استغل الأخير هذا الأمر في إثارة الحرب الدعائية ضد القوات العثمانية قبل استخدامه حرب العصابات مع قوات سنان باشا المتقدمة إلى حصن ثلاء وكوكبان، فأدى ذلك إلى تأخر سير جيوش سنان باشا في المنطقة الشمالية [٧٤].

عمل سنان باشا كل ما بوسعه من أجل التقدم باتجاه حصن ثلاء وكوكبان، لذلك تقدم بقواته للاستيلاء على حصن بيت عز . الذي يعد من أكثر الحصون قرباً من حصن ثلاء وأحكمها . فوجه ألف مقاتل من المشاة لتسلق الجبال ثم ألحق بهم الفرسان وجعل الآليات والمدافع في المؤخرة لصعوبة نقلها إلى مرتفعات تلك الجبال، وعلى الرغم من ذلك فشلت قوات سنان باشا في التقدم وتسلق تلك الجبال في بداية الأمر، لأنهم كانوا يواجهون الأحجار الكبيرة التي يلقيها المدافعون عن الحصن، لكن عزيمة سنان باشا ونفسه الطويل جعلاه يصبر ويقاوم وبعد مرور أربعة عشر شهراً من السيطرة على صنعاء تمكن سنان باشا وبمساعدة حسن باشا من الاستيلاء على حصن بين عز وذلك في ١٦ جمادى الأولى ٩٧٧هـ/٢٧ تشرين الأول

/ أكتوبر ١٥٦٩، مما شجع حسن باشا من التقدم لمحاصرة كوكبان بعد أن أمده سنان باشا بالمعدات والمدافع الكبيرة وألآت الحصار اللازمة(٧٥).

طال حصار قلعة كوكبان، وظل المدافعون عن القلعة بقيادة محمد بن شمس الدين مدة تسعة أشهر يصدون فيها محاولات العثمانيين في الاستيلاء عليها، فضاق الطرفان ذرعاً لطول مدة الحصار، فقرروا عقد صلح بينهما، علماً أن ميل محمد شمس الدين للصلح كان أكثر من ميل سنان باشا إليه، فشخصية محمد شمس الدين الضعيفة وضيقه بالحصار جعلته يميل إلى عقد الصلح(٧٦)، أما بالنسبة للأخير، فقد تضافرت عوامل عديدة جعلاه يميل إلى هذا الصلح، فمناعة حصن كوكبان وصمود مقاتليه أمام قوات سنان باشا لمدة طويلة حطمت آمال سنان باشا في السيطرة على الحصن كما أن نشاط المطهر بعد الحصار من الأسبان أجبر سنان باشا إلى عقد الصلح، ولا سيما بعد أن قلت قوات سنان باشا بعد المعارك التي خاضها مع المطهر، ولتفرق البقية على الحاميات المنتشرة في اليمن، فضلاً عن عدم انصياع والي مصر اسكندر باشا الشركسي (١٥٦٨ . ١٥٧١) عن تقديم أي مساعدة أو دعم لسنان باشا رغم الأوامر السلطانية الموجهة له والتي أثرت على إمكانيات سنان باشا القتالية (٧٧).

ومهما كان لدى الطرفين من أسباب اضطرتهم لعقد الصلح، فأنهما توصلا في مفاوضاتهما إلى توقيع معاهدة صلح في ١٠ ذي الحجة سنة ٩٧٧هـ /١٦ أيار / مايو ١٥٧٠م، وكان من شروط الصلح اعتراف العثمانيين بالسيطرة المحلية مقابل اعترافها بالسيطرة العثمانية على اليمن، كما أبقت شروط الصلح محمد بن شمس الدين على حصن كوكبان وله فيها من الممتلكات على أن تكون الخطبة والسكة للسلطان العثماني (٧٨).

وفي نهاية سنة ١٥٧٠ زار المطهر أخاه محمد بن شمس الدين في حصن كوكبان فكانت فرصة مناسبة دفعت سنان باشا لطلب الصلح معه، فوافق المطهر على ذلك شرط بقاء نفوذه كزعيم على المناطق الشمالية من اليمن مقابل بقاء حامية عثمانية هناك، والاعتراف بالسيطرة العثمانية على جميع أقاليم اليمن (٧٩).

وعلى ما يظهر، أن المطهر وصل إلى نتيجة أخيرة وهي أن المصالحة مع سنان باشا ولا سيما بعد إقدام أخيه محمد بن شمس الدين على المصالحة مع سنان باشا، وبعد الخسائر

الكبيرة التي تكبدها أهالي اليمن في المعارك التي جرت على أرضهم مع العثمانيين والزيديين والتي أضرت بأرواحهم وممتلكاتهم وموارد عيشهم، فضلاً عن قناعته بقوة الحملة العثمانية وقيادتها المتمثلة بسنان باشا الذي لم يتراجع عن هدفه طوال هذه المدة لما عرف عنه من قوة عسكرية وخبرة قتالية لا يجابهها أحد، لذلك وجد في المصالحة ما يحقق له مكاسب ضمنتها لهُ شروط المصالحة مقابل اعترافه بالسلطة العثمانية.

إن الصلح مع المطهر لم يكن يعني انتهاء الاضطرابات في بقية أجزاء اليمن، ففي الوقت الذي كان سنان باشا يعقد الصلح مع الإمام المطهر، صادف أن عينت الدولة العثمانية بهرام باشا والياً على اليمن في ٩ ذي الحجة سنة ٩٧٧هـ /١٥ أيار/ مايو ١٥٧٠م وكان لمجيئه دور فعال في تحقيق أهداف حملة سنان باشا في مراحلها الأخيرة [٨٠]، ولا سيما في منطقتين هامتين في اليمن وتحديداً منطقة تعز وما حولها من المناطق الجنوبية والتهامية، وفي إقليم (بعدان) وبصفة خاصة أمام حصن حب، وقد استطاع بهرام باشا من إخماد الاضطرابات التي كانت قد ثارت في تلك الأجزاء نتيجة سوء تصرف أميرها السابق، كما تقدم بهرام باشا إلى إقليم بعدان وتغلب على الجموع اليمنية التي اعترضته بمساعدة النجدة التي أرسلها له سنان باشا في الوقت الذي كان الأخير يعقد الصلح مع الإمام المطهر[٨١].

وبعد كل الخطوات التي أجراها سنان باشا، كان عليه أن يتخطى آخر عقبة أمامه ليضمن فيها السيطرة العثمانية بشكل كامل على اليمن، إذ تمثلت تلك العقبة في حصن حب الذي يسيطر عليه علي بن شرف الدين أخو الإمام المطهر، الذي رفض الخضوع للدولة العثمانية، فأرسل سنان باشا قوات ضخمة يقودها بهرام باشا لمحاصرته، بينما توجه سنان باشا إلى منطقة ذمار ليكون قريباً من بهرام باشا، وقد حاول بهرام باشا السيطرة على هذا الحصن المنيع بشتى الوسائل لكنه فشل في ذلك [٨٢]، لكون علي بن شرف الدين قد جمع حوله جمعاً من اليمنيين، وأصبح يمثل لهم رمزاً للمقاومة اليمنية في وسط الهضبة، لكن سنان باشا بذل جهداً مضاعفاً من اجل السيطرة على هذا الحصن، حتى أنه سحب قواته المتواجدة في الشمال لتحقيق غرضه، لكن الحصن لم يسقط بيد بهرام باشا إلا بالخدعة بعد فترة استغرقت أكثر من ستة أشهر، عندما استطاع بهرام باشا أن يستميل بعض العناصر المقربة من علي بن شرف الدين،

فقاموا بدس السم في طعامه عندها استسلمت الحامية لبهرام باشا الذي وعد بتأمين حياتهم، لكنه لم يفِ بوعده فقتل أغلبهم ولم ينجُ منهم إلا من فرَّ منهم(٨٣).

يعد سقوط حصن حب آخر أعمال سنان باشا الحربية على أرض اليمن، إذ غادر سنان باشا اليمن بعد ذلك بحوالي ثلاثة أشهر في ٥ شوال سنة ٩٧٨هـ/ ٢ آذار / مارس ١٥٧١م بعد أن قام بتنظيم شؤون اليمن وسلم مقاليدها إلى الوالي بهرام باشا(٨٤). ثم غادر إلى استانبول بعد أن أدى فريضة الحج (٨٥). ليعود بعدها والياً على مصر حتى عام ١٥٧٣م ثم يختار ليكون قائداً للحملة المتوجهة لفتح تونس عام ١٥٧٤ التي سنأتي إلى الحديث عنها لاحقاً.

ومن الجدير بالذكر أن حملة سنان باشا على اليمن، تعد من الحملات المهمة في تاريخ الدولة العثمانية، ولا سيما أنها حققت هدفها المنشود في استعادة سيطرتها على اليمن بعد صراع طويل مع الزيديين، أثبت فيها القائد سنان باشا شجاعة كبيرة وكفاءة قتالية لاتقهر على الرغم من الظروف الصعبة التي واجهته في هذه البلاد الصعبة.

– دور سنان باشا في فتح تونس عام ١٥٧٤:

– أوضاع تونس قبيل الحملة :

كما هو معروف أن الدولة العثمانية تمكنت من إخضاع تونس لسيطرتها منذ سنة ١٥٣٤ على يد البحار المعروف خير الدين بربروسا(٨٦)، إذ تمكن هذا القائد من إنهاء حكم السلطان الحسن بن محمد الحفصي آخر سلاطين الدولة الحفصية(٨٧) فيها وإعلان تبعيتها للدولة العثمانية(٨٨)، وعينت الرشيد بن محمد الحفصي حاكماً على تونس(٨٩).

أولت الدولة العثمانية اهتماماً بالغاً في ضم تونس إلى السيادة العثمانية، لأهميتها الإستراتيجية، ولتوسطها بين الجزائر وليبيا، ولقربها من إيطاليا وجزيرة مالطا مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء إمبراطور أسبانيا شارل الخامس (١٥١٦ـ ١٥٥٦) فضلاً عن الإمكانيات الهائلة التي توفرها موانئها في التحكم بالمواصلات البحرية في البحر المتوسط(٩٠).

لم يرضَ السلطان المخلوع بما قام به خير الدين من إجراءات تخص تونس، لذلك قرر اللجوء إلى أسبانيا والاستعانة بالإمبراطور شارل الخامس، لاستعادة ملكه على تونس، وقد

استجاب له إمبراطور أسبانيا ليس حباً بالسلطان المخلوع بقدر ما يتعلق الأمر بمصالح تخص إمبراطوريته التي بدأت الدولة العثمانية تهددها في سواحل البحر المتوسط [٩١].لذلك أراد شارل الخامس أن ينشئ قاعدة أسبانية تفصل الجزائر عن استانبول[٩٢]. فضلاً عن أن موانئ وسواحل تونس أصبحت بمثابة الجبهة التي تفصل ما بين أسبانيا وحلفائها من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى[٩٣].

تهيأت الظروف للأسبان ليقوموا بهجومهم على تونس، ولا سيما أن الدولة العثمانية كانت منشغلة في هذه المدة بحروبها مع أوربا من جهة[٩٤]، ومع بلاد فارس من جهة أخرى[٩٥]. فتقدم الأسطول الأسباني الكبير الذي قاده شارل الخامس بنفسه سنة ١٥٣٥ وبعد معركة قوية وقصيرة تمكنت القوات الأسبانية وبمساعدة الحسن الحفصي . السلطان المخلوع . من احتلال ميناء (حلق الوادي) والبلاد التونسية [٩٦].

لم يتوقع خير الدين بربروسا أن يقوم الأسبان بالهجوم على البلاد التونسية، إذ لم يترك حامية فيها بحيث لم يحصن ميناء حلق الوادي كما وابعد الأسطول العثماني عن السواحل التونسية بعد فتحها [٩٧]. فهيأ هذا الأمر فرصة مناسبة للأسبان للتقدم والسيطرة على السواحل التونسية دون مخاوف، وعلى الرغم من عودة خير الدين بربروسا وقواته لمواجهة الأسبان [٩٨]، فإن الوقت كان قد تأخر إذ سيطر الأسبان على البلاد واستباحوها مدة ثلاثة أيام وبموافقة السلطان الحفصي الحسن بن محمد، فأخذوا قتلاً بالأهالي وتدميراً بالبلاد، إذ لم تسلم منهم حتى المعالم الحضارية والدينية[٩٩]. وفرضوا سيطرتهم على البلاد، وأعادوا الحسن بن محمد سلطاناً عليها تحت حماية إمبراطور أسبانيا شرط أن يتنازل له عن ميناء حلق الوادي لغرض إقامة حامية أسبانية فيه، فضلاً عن شروط أخرى[١٠٠].

انشغل خير الدين بربروسا في هذه المدة بالقتال على الجبهة الأوربية مع السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠. ١٥٦٦) فاستغل الأسبان هذه الفرصة واندفعوا نحو الأجزاء الأخرى في المغرب العربي، إذ كانت وجهتهم هذه المرة الجزائر التي كان يحكمها الوالي حسن آغا الذي ركز جهوده في المحافظة على أمن وسلامة البلاد من الهجمات الأسبانية حتى وفاته سنة ١٥٤٤[١٠١].

بقى الصراع الأسباني . العثماني بعد هذه الحقبة الطويلة مستمراً، مع محافظة الدولة العثمانية على ولاية الجزائر تحت سيطرتها حتى بعد وفاة حسن آغا، بل وتمكنها من استعادة طرابلس الغرب من فرسان القديس يوحنا سنة ١٥٥١ على يد سنان باشا، إذ لم يبقَ أمام الدولة العثمانية إلا أن تركز جهودها من اجل استعادة السيطرة على تونس مرة أخرى[١٠٢].

بعد وفاة السلطان سليمان القانوني سنة١٥٦٦، تولى السلطة ابنه سليم الثاني (١٥٦٦ . ١٥٧٤) والذي سار على نهج والده في مواجهة الأسبان في حوض البحر المتوسط وإبعادهم عن بلاد المغرب العربي، فعُيّنَ حسن بن خير الدين بربروسا قائداً عاماً للأسطول العثماني بعد وفاة والده[١٠٣]، وعُيّنَ محمد بن صالح باشا (١٥٦٧ . ١٥٦٨) على ولاية الجزائر بدلاً عنه، ثم عزل بعد عام [١٠٤]. وعُيّنَ بدله قلج علي الذي اشتهر بجهاده وأعماله البطولية في خدمة الإسلام والدفاع عنه، واستطاع خلال مدة قصيرة من تثبيت أمور البلاد الداخلية واستقرارها[١٠٥]. ليلتفت بعهدها إلى الوضع في تونس، إذ جهز حملة نحوها لتخليصها من الحفصيين وحلفائهم الأسبان، وفي أثناء ذلك كان مسلمو الأندلس يعدون العدة للقيام بثورة ضد الأسبان، فأرسلوا إليه يطلبون مساعدته من أجل استعادة الحكم الإسلامي هناك، فوجد قلج علي في ذلك فرصة للتقدم إلى تونس ولا سيما أن الأوضاع في أسبانيا مؤهلة لذلك بعد إعلان الثورة [١٠٦]. فضلاً عن أنه شجع مسلمي الأندلس على ذلك انطلاقاً من دعمه الروحي الديني لاستعادة الأندلس، كما قام بمدهم بالتعزيزات العسكرية لإنجاح هذه الثورة[١٠٧].

وفي هذه المدة التي انشغل بها الأسبان بثورة مسلمي الأندلس، تقدم قلج علي في سنة ١٥٦٩ نحو تونس، ودخل في معركة عنيفة مع جيشها، تمكن فيها من أن يهزم الحفصيين، ويدخل تونس بعد أن فرَّ سلطانها والتجأ إلى الأسبان في حلق الوادي [١٠٨].

وبعد ذلك دخل قلج علي تونس وآمن على حياة سكانها وأخذ منهم البيعة للسلطان العثماني، ثم عيّنَ أحد قواده ويدعى رمضان بك لإدارة البلاد، وترك معه حامية عثمانية صغيرة لحماية البلاد من أي اعتداء أسباني مفاجئ، ثم عاد إلى الجزائر ليعد العدة لمهاجمة الأسبان في حلق الوادي[١٠٩].

أثارت استعادة السيطرة العثمانية على تونس، ردود أفعال شديدة على كل من أسبانيا والمدن الإيطالية لما في ذلك من تهديد لطرق المواصلات ما بين أسبانيا وتلك المدن، كما أن الدولة العثمانية كانت تشن غاراتها في هذا الوقت على جزيرة قبرص التابعة للبندقية [١١٠]، ونتيجة لذلك جرى تقارب كان من الصعب حصوله في الظروف العادية بين أسبانيا والبندقية [١١١]، كما أظهر البابا بيوس الخامس (١٥٦٦. ١٥٧٢) مخاوفه من تحركات الدولة العثمانية، لذلك سعى للوقوف بوجه ما أسماه الخطر الإسلامي، وقد نجح في ذلك عندما قام في ٢٠ أيار / مايو سنة ١٥٧١ بإنشاء تحالف بين أسطولي أسبانيا والبندقية، كما انظم إليهما الأسطول البابوي وبقية المدن الإيطالية والألمانية [١١٢].

أراد فيليب الثاني (١٥٥٦- ١٥٩٨) امبراطور أسبانيا استغلال هذا التحالف الأوربي وتوجيهه لاسترداد تونس أولاً، لكن البابا والبندقية أصرّا على أن يبدأ الحلفاء في محاربة العثمانيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط لإنقاذ جزيرة قبرص، ومن ثم التوجه فيما بعد لضرب العثمانيين في المغرب العربي[١١٣].

التقى أسطول الحلفاء مع الأسطول العثماني قرب ليبانتو (***Lepante***) . ميناء يقع على الساحل الغربي لليونان في خليج كورنثيا . في سنة ١٥٧١ وحدثت بينهما معركة كبيرة خسر فيها الأسطول العثماني[١١٤] خسارة كبيرة كانت الأولى من نوعها في تاريخ الدولة العثمانية، لكنها لم تنته، إذ استطاع قلج علي في عام ١٥٧٢ إعادة بناء الأسطول لتعويض ما فقده في معركة ليبانتو، حتى أنه تابعه عملياته الحربية ضد أوربا [١١٥].

– دور سنان باشا في استعادة تونس :

وفي عام ١٥٧٣ قرر الإمبراطور فيليب الثاني التوجه نحو المغرب العربي ولا سيما بعد خسارة الدولة العثمانية في معركة ليبانتو، لذلك شرع في إعداد حملة عسكرية أوكل قيادتها إلى أخيه الأمير دون جوان للتوجه لاستعادة تونس أولاً[١١٦]، مستغلاً لجوء السلطان الحفصي أبو العباس إلى حاميته في حلق الوادي لمساعدته في استعادة عرشه[١١٧].

وصل الأسطول الأسباني إلى قلعة حلق الوادي ونزلت قواته فيها [١١٨]، وهناك تفاوضوا مع السلطان الحفصي حول مقاسمته ملكه مقابل إعادته على عرشه، رفض أبو العباس ذلك وآثر الانسحاب والتنازل عن حكمه لأخيه محمد بن الحسن . آخر سلاطين الدولة الحفصية . الذي وافق على شروط الأسبان [١١٩]. فهاجم دون جوان تونس على حين غفلة واستولى عليها دون قتال، إذ لم تكن فيها حامية كافية تقوم بالدفاع عنها وصد الهجوم الذي تعرض له [١٢٠] ، فاضطرالوالي العثماني حينئذٍ رمضان بك إلى الانسحاب متجهاً إلى القيروان [١٢١]، كما خرج أكثرية سكان البلاد التونسية خارج البلاد فراراً لإنقاذ أنفسهم وأموالهم من قتل وبطش الأسبان[١٢٢]. وهكذا تم إقامة حكم أسباني . حفصي مشترك في تونس دام عشرة أشهر فقط[١٢٣].

وعلى الرغم من سيطرة الأسبان على تونس فإن ذلك لم يرض السلطان سليم الثاني الذي أصدر أوامره في سنة ١٥٧٤ للبدء في إعداد حملة بحرية تعمل على إخضاع تونس للإدارة العثمانية، وللثأر لهزيمتهم في ليبانتو [١٢٤]، فقام بإرسال أسطوله الذي يقوده قلج علي، ومعهُ جيش عثماني يقوده سنان باشا[١٢٥]، الذي نزل على مقربة من تونس يساعده جيش جزائري وآخر من طرابلس الغرب فضلاً عن مشاركة جيش القيروان [١٢٦].

وقف قلج علي أمام تونس في تموز / يوليو ١٥٧٤، وبعد حصار طويل وقتال استمر إلى ثلاثة وأربعين يوماً لقلعة حلق الوادي تمكن قلج علي من السيطرة عليها في ٢٥ آب / أغسطس في العام ذاته [١٢٧]، وقد غنم كل ما فيها من عدة وذخائر بعد فرار حاميتها عنها، كما نجح سنان باشا في الوقت ذاته في الدخول إلى تونس والسيطرة عليها[١٢٨]، إذ لم يعد باستطاعة محمد بن الحسن وحلفائه الأسبان الصمود والمقاومة أمام قوات سنان باشا، فانهزموا وتحصنوا في قلعة البستون [١٢٩] . قلعة بناها الأسبان بالقرب من تونس . لكن سنان باشا صمم على اللحاق بهم والقضاء عليهم، فحاصرهم في تلك القلعة [١٣٠].

وفي أثناء ذلك الحصار كان سنان باشا يعمل كواحد من الجند، إذ كان ينقل التراب والحجر على ظهره لعمل ترس يشرف على من في قلعة البستون، ويذكر أبن أبي الضياف أن أحد امراء الجند اعترض سنان باشا فقال له: " ما هذا أيها الوزير ؟ نحن إلى رأيك أحوج منه

إلى جسمك، فأجابه الوزير سنان باشا: لا تحرمني من هذا الثوب "[١٣١]" وظل سنان باشا يقاتل محمد بن الحسن وحلفائه الأسبان حتى تمكن من السيطرة على الحصن، واستأصل ما به بالقتل والأسر بعد معركة حامية، خسر فيها كلا الطرفين ما يزيد عن العشرين ألف، ثم قام العثمانيون بهدم تلك القلعة[١٣٢].

أما بالنسبة إلى محمد بن الحسن، فقد كان من ضمن الأسرى، إذ أرسل إلى استانبول وبقي فيها إلى أن توفي، وبهذه الموقعة انتهت دولة بني حفص التي حكمت مدة (٣٧٠) عاماً[١٣٣]. وصارت تونس ولاية تابعة للدولة العثمانية.

الخاتمة

أدى انشغال الدولة العثمانية بفتوحاتها المستمرة ولا سيما في النصف الأول من القرن السادس عشر عهد السلطان سليمان القانوني، إلى فقدان أجزاء من البلاد العربية التي كانت خاضعة لسيطرتها، فكان لا بد من استعادة وإخضاع تلك الأجزاء لسيطرة الدولة العثمانية.

كان للتهديد البرتغالي المستمر على البحر الأحمر والموانئ العربية والأماكن المقدسة في الحجاز، دوراً كبيراً في قيام الدولة العثمانية . كونها القوة الإسلامية الموجودة في البلاد . إلى مواجهة هذا الخطر ولا سيما اليمن التي بموقعها الستراتيجي والحيوي ذو أهمية كبيرة بالنسبة للعثمانيين الذين أرادوا استعادة سيطرتهم عليها ولمواجهة الخطر البرتغالي.

لم تكن اليمن ذلك الجزء الذي فقدت الدولة العثمانية سيطرتها عليه، فقد كانت تونس أيضاً من تلك الأجزاء التي احتلت من قبل الأسبان وبمساعدة أحد سلاطين الدولة الحفصية.

وجب على الدولة العثمانية استعادة الأجزاء التي فقدت سيطرتها عليها، ولم يتم هذا إلا بإرسال حملة بحرية عسكرية إلى كل من اليمن وتونس.

عدت الحملة الموجهة إلى اليمن من الحملات الضخمة والمهمة في تاريخ الدولة العثمانية، من حيث العدة والعدد، فضلاً عن القيادة، لما واجهته من صعوبات في تلك الأجزاء من حيث كون اليمن من المناطق الجبلية الصعبة، فضلاً عن رفض الأئمة الزيديين الخضوع

لسلطة الدولة العثمانية، إذ عدّوا أنفسهم سادة بلاد اليمن ولا يرضوا بتبعيتهم للدولة العثمانية، لذلك استمر الصراع بين قائد الحملة سنان باشا وبينهم فترة طويلة جداً إلى أن انتهت بالصلح.

كفاءة وقدرة القائد سنان باشا العسكرية، كان لها الدور الكبير في نجاح مهمة وأهداف الحملة الموجهة إلى اليمن، إذ لم تثنه الصعوبات التي واجهها أثناء الحملة عن نجاح مهمته واستعادة اليمن إلى السلطة العثمانية مرة أخرى.

ثقة الدولة العثمانية بقدرات القائد سنان باشا، جعلها تقوم بإرساله في عام ١٥٧٤ إلى تونس للمشاركة في عملية فتحها وتخليصها من الأسبان، وقد تم ذلك وضمن مدة قصيرة.

أثبتت الحملتين اللتين قادهما سنان باشا على إصرار الدولة العثمانية على استعادة أي جزء من الأجزاء التي فقدتها، فضلاً عن محافظتها على تلك الأجزاء من أي تهديد استعماري قد تتعرض له، كونها القوة الإسلامية الموجودة آنذاك في العالم الإسلامي، ومن حقها حماية تلك الأجزاء سواء بالقوة أو بالتفاهم مع أهالي البلاد التي يتم إخضاعها أو فتحها، لذلك كانت حملتي اليمن وتونس من الحملات المهمة في تاريخ الدولة العثمانية في بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي.

وعلى الرغم من أن مدة الحملتين كانت في عهد السلطان سليم الثاني الذي وصف بالسكر، لكنهُ في الحقيقة سار على نهج والدهُ في المحافظة على أجزاء الدولة العثمانية قدر الإمكان واستعادة الأجزاء التي خرجت عن سيطرتها، فضلاً عن استمرار صد الهجمات البرتغالية والأسبانية للأراضي العربية سواء في المشرق أو المغرب العربي.

ثبت الهوامش :

(١) دائرة المعارف الإسلامية، نقله إلى العربية: محمد ثابت واحمد الشنشناوي وآخرون، المجلد الثاني عشر، (د . م، ١٩٣٣)، ص٢٣٢.

(٢) لورثوب ستيوارد، حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربية: عجاج نويهض، ط٣، مجلد ٣، (لبنان، ١٩٧١)، ص٢٤٥ ؛ علي حسون، محنة المسلمين في البلقان، (بيروت، ١٩٩٧)، ص٦٠.

(٣) ستيوارد، المصدر السابق، ص٢٤٦ ؛ حسون، المصدر السابق، ص٦٠ . ٦١.

(٤) ضريبة الغلمان . للتفاصيل عنها ينظر: هاملتون جب وهارولد بون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: احمد عبد الرحيم مصطفى، (مصر، ١٩٧١)، ص٨٧.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني عشر، ص٢٣٢. وللتفاصيل عن ذلك ينظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، وردنجي جلد، (استانبول، ١٣١١هـ)، ص٢٦٣٥ . ٢٦٣٦.

(٦) سمير عبد الرسول عبد الله العبيدي، طرابلس الغرب أثناء احتلال الأسبان وفرسان القديس يوحنا (١٥١٠ . ١٥٥١)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، (جامعة بغداد، ٢٠٠٣)، ص ١٤٩ ؛ ينظر:

Colin Imber , The Ottoman Empire 1300 – 1650 , The Structure of power , (Britain , n.d) , p.55.

(٧) ايتوري روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة وتقديم: خليفة محمد التليسي، (ليبيا، د . ت)، ص٤٩ . ٥٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ص ٧٥ . ٧٦ ؛ شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة: عبد الكريم الوافي، (طرابلس، د . ت)، ج ٣، ص ص ١٠٥ . ١٠٧.

(٩) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦ . ١٩٥٦، (دمشق، ١٩٧٤)، ص١١٠.

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية، المصدر السابق، ص ٢٣٢. ومن الجدير بالذكر كان الوالي المعزول عن حكم الإيالة والذي يحمل رتبة الوزارة يعود إلى العاصمة يصبح في عداد وزراء القبة أو ما يسمى (وزير ديوان). ينظر: خليل علي مراد، تاريخ العراق الإداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨ . ١٧٥٠، رسالة ماجستير، كلية الآداب، (جامعة بغداد، ١٩٧٥)، ص٩٠.

(١١) دائرة المعارف الإسلامية، المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية، المصدر السابق، ص٢٣٤ .

(١٤) المصدر نفسه، ص٢٣٤ .

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(١٦) ينظر: محمد أمين بن فضل الله المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر،(بيروت، د . ت)، ج٢، ص ٢١٤ . ٢١٧ ؛ الحسن بن محمد البُريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، (دمشق، ١٩٥٩)، ص١٣٤ . ١٥٣.

(١٧) للتفاصيل عن ذلك ينظر: إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦. ١٩١٦، (الموصل، ١٩٨٣)، ص٢١.

(١٨) المصدر نفسه، ص٥٣ .

(١٩) للتفاصيل ينظر: قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، (الرياض، ١٩٦٧)، ص٣٣.

(٢٠) ينظر: طارق نافع الحمداني، " عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامح العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر "، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٤٢)، (الكويت،١٩٨٥)، ص١٦٩.

(٢١) عمر عبد العزيز عمر، المشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، (القاهرة، ١٩٧١)، ص٩٧.

(٢٢) الحمداني، المصدر السابق، ص١٧٦.

(٢٣) فاروق عثمان أباضه، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ . ١٩١٨، (الإسكندرية، ١٩٧٥)، ص١٧؛ الحمداني، المصدر السابق، ١٧٦.

(٢٤) احمد، المصدر السابق، ص٤١ . ويذكر أن الحملة مؤلفة من سبعين سفينة . ينظر: نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦- ١٥٧٤، نقله إلى العربية: يوسف عطا الله،(موسكو،١٩٨٦)، ص١٥٩.

(٢٥) ايفانوف، المصدر نفسه، ص١٥٩.

(٢٦) حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط٢، (القاهرة، ١٩٣٨)، ص٤٤ ؛ أباضه، المصدر السابق، ص١٨ . ويذكر أن عمر سليمان باشا الخادم كان في الثمانين من عمره، ولم يعرف عنه تمتعه بأي مواهب . ينظر: ايفانوف، المصدر السابق، ص١٥٩ . وباعتقادنا أن ما ذكر غير دقيق، فمن غير المعقول أن تولي الدولة العثمانية حملة كبيرة متجهة لمواجهة البرتغاليين ولإخضاع اليمن لقائد ليس لهُ من الكفاءة والخبرة شيء، ولا سيما في عهد السلطان سليمان القانوني الذي برز في عهده الكثير من القادة الأفذاذ . السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص١١٤.

(٢٧) السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص١١٤.

(٢٨) أباضه، المصدر السابق، ص١٨ ؛ ايفانوف، المصدر السابق، ١٥٩.

(٢٩) للتفاصيل عن ذلك ينظر: النهروالي، المصدر السابق، ص ص ٨٠ . ٨٥.

(30) J.K.Blackburn , " Arabic and Turkish source material for the early history ottoman Yemen , (945/1538 -976/1568), studies in the history of Arabia , Vol . I , (Riyadh , n.d) , p.197.

(٣١) سالم، المصدر السابق، ص١١٥.

(٣٢) عمر، المصدر السابق، ص١٠٠.

(33) Blackburn , op . cit , p.198.

(34) Ibid , p.199.

(٣٥) أباضه، المصدر السابق، ص٢٢.

(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٠ ؛ ايفانوف، المصدر السابق، ص١٦٨.

(٣٧) للتفاصيل عن بيري ريس وحملته على اليمن ودوره في إخماد الاضطرابات في اليمن ينظر: حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ط٢، (بيروت، ١٩٨١)، ص٢١٥؛ صالح أوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ . ١٥٨١، ترجمة: عبد الجبار ناجي، (بغداد، ١٩٧٩)، ص٤٣ ؛ ينظر نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي، " البحار العثماني محيي الدين بيري، حياته وجهاده البحري ١٤٦٥ .

١٥٥٤ "، مجلة التربية والعلم، المجلد (١٦)، العدد (٤)، (جامعة الموصل، ٢٠٠٩)، ص٨٣.

(٣٨) من الشخصيات العثمانية البحرية المعروفة، والذي لقب بـ (بربروسا) . للتفاصيل عنه ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة (خير الدين)، المجلد (٩)، ص٦٤ ؛ فارس، المصدر السابق، ص٢٩.

(٣٩) يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سليمان، مراجعة: محمود الأنصاري، المجلد الأول، (استانبول، ١٩٨٨)، ص٣٦٢.

(٤٠) اوزتونا، المصدر السابق، ص٣٦٢.

(٤١) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ط١، (مصر، ١٣١٢هـ)، ص ص ٥٥٦ . ٥٥٧.

(٤٢) اللالا هو أستاذ أو مربي أبن السلطان.

(٤٣) سالم، المصدر السابق، ص٢٣٩ ؛ اوزتونا، المصدر السابق، ص٣٦٣

(٤٤) مصطفى سلانيكي، تاريخ سلانيكي، (استانبول، د . ت)، ص٩٥. للتفاصيل عن ذلك ينظر: سالم، المصدر السابق، ص ٢٣٩ . ٢٤١.

(٤٥) سالم، المصدر السابق، ص٢٤٣.

(٤٦) النهروالي، المصدر السابق، ص٢٣٢٠.

(٤٧) ينظر الوثيقة رقم (٢٧٥٣) بتاريخ ١٨ محرم ٩٧٦ هـ/١٣ تموز / يوليو ١٥٦٨م في: محمد عيسى صالحية، " وثائق جديدة من حملة سنان باشا إلى اليمن سنة ٩٧٦هـ/٦٨ . ١٥٦٩م "، مجلة حوليات كلية الآداب، الحولية الثامنة، (جامعة الكويت، ١٩٨٧)، ص١٨.

(٤٨) سالم، المصدر السابق، ص٢٤٤.

(٤٩) النهروالي، المصدر السابق، ص٢٣٢.

(٥٠) للتفاصيل عن ذلك ينظر الوثيقة رقم (١٩٢٢) المؤرخة في ٢١ صفر ٩٧٦ هـ/١٥ آب / أغسطس ١٥٦٨م في صالحية، المصدر السابق، ص٢١.

(٥١) للتفاصيل عن ذلك ينظر الوثيقة رقم (٢٧٥٣) المؤرخة في ١٨ محرم ٩٧٦ هـ/١٣ تموز / يوليو ١٥٦٨م في صالحية، المصدر السابق، ص١٨.

(٥٢) الجونلية وتعني المتطوعين وأفرادها من الفرسان الذين اشتركوا مع السلطان سليم الأول في فتح مصر، ومهمتهم توطيد الأمن في البلاد . ينظر: عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر ط٢، (دمشق، ١٩٦٨)، ص١٤٤.

(٥٣) الجراكسة (الشراكسة): وهم من طوائف العسكر في مصر، وأفرادها من المماليك الفرسان، مهمة أفرادها المحافظة على الأمن في الأقاليم ومراقبة زراعة الأراضي والمحافظة على شبكات الري وتوزيع المياه . ينظر: رافق، المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٥٤) الجاووشية: وهم الرسل الذين يقومون بإبلاغ الأوامر والمهمات، كما يعملون كجباة في الأقاليم . ينظر: رافق، المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٥٥) للتفاصيل ينظر نص الوثيقة رقم (١٩٢٢٠) المؤرخة في ٢١ صفر ٩٧٦هـ/٥ آب /أغسطس ١٥٦٨م في صالحية، المصدر السابق، ص٢١.

(٥٦) للتفاصيل ينظر نص الوثيقة رقم (٢٠٠٦) المؤرخة في ٩ ربيع الاول٩٧٦هـ/١ أيلول / سبتمبر ١٥٦٨م في صالحية، المصدر السابق، ص٢١.

(٥٧) النهروالي، المصدر السابق، ص٢١١ . ٢١٢.

(٥٨) تاريخ سلانيكي، المصدر السابق، ص٩٦ ؛ للتفاصيل ينظر نص الوثيقة المرقمة (٢٠٠٤) المؤرخة في ٩ ربيع الاول٩٧٦هـ/١ أيلول / سبتمبر ١٥٦٨م في صالحية، المصدر السابق، ص ص ٢٥، ٢٧.

(٥٩) الخليان: وتعني المتطوعين وعناصرها من الفرسان، مهمتهم توطيد الأمن في الأقاليم، ومنع البدو من غزو المناطق الزراعية، أو تهديد المواصلات وسميت هذه الطائفة جمليات (صاحب جمل) لاستخدام أفرادها الجمال . ينظر: صالحية، المصدر السابق، هامش ٢، ص٣٢.

(٦٠) ينظر نص الوثيقة رقم (٢١٠٠) المؤرخة في ٢٤ ربيع الاول٩٧٦هـ/١٦ أيلول / سبتمبر ١٥٦٨م في صالحية، المصدر السابق، ص٣٧ . بينما يذكر مصدر آخر أن سنان باشا قام بإرسال (٦٠٥) من العساكر براً إلى اليمن . ينظر: عاطف باشا، يمن تاريخي، برنجي جلد (الجزء الأول)، (استانبول، ١٣٢٦)، ص٧٣.

(٦١) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٦٢) للمزيد من التفاصيل ينظر: النهروالي، المصدر السابق، ص٢١١ . ٢١٣.

(٦٣) ايفانوف، المصدر السابق، ص١٧٥ ؛ وينظر:

Halil Inalcik , An economic and social history of the Ottoman Impire 1300-1914, (London , 1996) , p.334.

ويذكر عبد الكريم رافق أن سنان باشا غادر مصر في ٢٢ آذار / مارس ١٥٦٨ . ينظر ص٩٤.

(٦٤) النهروالي، المصدر السابق، ص٢٢١ ؛ تاريخ سلانيكي، المصدر السابق، ص٩٥.

(٦٥) تاريخ سلانيكي، المصدر السابق، ص ص٩٧ . ٩٨ ؛ سالم، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٦٦) للتفاصيل ينظر: النهروالي، المصدر السابق، ص ص٢٢٤ . ٢٣١؛ عاطف باشا، المصدر السابق، ص٧٤ ؛ عبد الرحمن شرف، تاريخ دولت عثمانية، جلد ١، (استانبول، ١٣١٥هـ) طبع ثاني، ص ص٢٦٤.

(٦٧) سالم، المصدر السابق، ص٢٤٨.

(٦٨) المصدر نفسه، ص٢٥٢.

(٦٩) النهروالي، المصدر السابق، ص ص ٢٣٧ . ٢٣٨؛ سالم، المصدر السابق، ص ص٢٥٣ . ٢٥٤.

(٧٠) ايفانوف، المصدر السابق، ص ص ١٧٥ . ١٧٦ ؛ وللمزيد من التفاصيل ينظر: عاطف باشا، المصدر السابق، ص ٧٤ ؛ النهروالي، المصدر السابق، ص ص ٢٤٩ . ٢٥٠.

(٧١) أحمد شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، (القاهرة، ١٩٦٣)، ص٢٦٤؛ ايفانوف، المصدر السابق، ص١٧٦.

(٧٢) أباضه، المصدر السابق، ص٢٣ ؛ ايفانوف، المصدر السابق، ص١٧٦.

(٧٣) النهرواني، المصدر السابق، ص٢٩٤ ؛ سالم، المصدر السابق، ص٢٦٠؛ ايفانوف، المصدر السابق، ص١٧٦.

(٧٤) سالم، المصدر السابق، ص٢٦٨.

(٧٥) النهرواني، المصدر السابق، ص٣١٨ ؛ سالم، المصدر السابق، ص٢٦٨ . ٢٧٠؛ ايفانوف، المصدر السابق، ص١٧٧.

(٧٦) يذكر أن محمد بن شمس الدين كتب إلى أخيه المطهر وعرض عليه تقديم طلب الصلح مع سنان باشا بعد أن وجد أن الحرب مع الأخير قد سبب دماراً كبيراً وأسفكت دماءً كثيرة، لكن المطهر لم يوافق على طلبه، بل طلب منه التأني والصبر لمدة أطول لكن محمد شمس الدين لم يكن له آذان صاغية، فتقدم بطلب الصلح إلى سنان باشا . ينظر: عاطف باشا، المصدر السابق، ص٧٨.

(٧٧) سالم، المصدر السابق، ص ص ٢٧٥ . ٢٧٦.

(٧٨) للتفاصيل ينظر: النهروالي، المصدر السابق، ص ص ٤١٥ . ٤٢٦.

(٧٩) عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ . ١٨٤٠، (القاهرة، ١٩٦٩)، ص ٣١ ؛ سالم، المصدر السابق، ص٢٧٨ ؛ ايفانوف، المصدر السابق، ص١٧٨.

(٨٠) سالم، المصدر السابق، ص٢٨١.

(٨١) المصدر نفسه، ص٢٨١.

(٨٢) سالم، المصدر السابق، ص٢٨٢.

(٨٣) عاطف باشا، المصدر السابق، ص ٧٩ ؛ سالم، المصدر السابق، ص٢٨٣.

(٨٤) البطريق، المصدر السابق، ص ٣١ ؛ سالم، المصدر السابق، ص٢٨٣ ؛ ايفانوف، المصدر السابق، ص٣٦٤.

(٨٥) اوزتونا، المصدر السابق، ص ٣٦٤.

(٨٦) وهو الابن الثالث من أخوته الأربعة لوالدهم يوسف بن يعقوب التركي الذي كان سباهياً . فارس إقطاعي . في الجيش العثماني، والاسم الحقيقي لخير الدين هو خضر أو خسرف، أُبدل بخير الدين الذي أطلقه عليه الأندلسيون والمغاربة حينما قدم لنجدتهم من أعدائهم الأسبان . ينظر: أحمد حامد ومصطفى محسن، توكيه تاريخي استانبولك فتخنده زماتمزة تادرا، (استانبول، ١٩٢٦)، ص١٠٠.

(٨٧) كان السلطان الحسن بن محمد (٩٣٢ . ٩٤٣هـ/ ١٥٢٥ . ١٥٢٦م) قد خلف والده في الدولة الحفصية في تونس التي كانت شبه منهارة لانشغاله في أمور الترف واللهو، فلما تسلم الحسن بن محمد الحكم قتل أغلب أخوته ولم ينج منهم إلا الرشيد وعبد المؤمن اللذين كانا خارج المدينة، فاستعان الرشيد بخير الدين بربروسا لإنقاذ البلاد من أخيه ولا سيما أن السكان قد عانوا من سياسته التعسفية الشيء الكبير . ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢ . ١٧٩٢، (الجزائر، د . ت)، ص٢٢٩ ؛ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، (بيروت، ١٩٦٩)، ص٣٣.

(٨٨) للتفاصيل عن ذلك ينظر: المدني، المصدر السابق، ص ص ٢٢٩. ٢٣٠؛ رابحه محمد خضير عيسى الجبوري، موقف القوى الإسلامية من التوسع الأوربي في المغرب العربي ١٤٩٢ . ١٥٧٨، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، (جامعة الموصل، ٢٠٠٦)، ص ص ١٣٨ . ١٣٩.

(٨٩)علي محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، (القاهرة، ٢٠٠٤)، ص٢٦٥.

(٩٠) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج٢، (القاهرة، ١٩٨٠)، ج٢، ص ص ٩١٥ . ٩١٦.

(٩١) ينظر:

Edward S.Creasy , History of the Ottoman Turks , (Beirut , 1964) , p.177.

(٩٢) فارس، المصدر السابق، ص٣٤.

(٩٣) ينظر:

Wilf Knapp, Tunisia , (London , 1970) , p.76.

(94) Ismail Soysal , Farmsizihtikakive ,Turk - Fransiz diplomasi munasebetteri , (1789- 1809),2 Basik, (Ankara, 1987) , p.8.

(٩٥) والمقصود بها حملة السلطان القانوني عام ١٥٣٤ . ١٥٣٥ والتي استطاع فيها إلحاق بغداد ووسطها بالدولة العثمانية . للمزيد عن ذلك ينظر: إبراهيم أفندي، المصباح الساري ونزهة القارئ، (بيروت، ١٢٧٥هـ)، ص ص ١٣٧. ١٣٨.

(٩٦) يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ط ١، (الجزائر، ١٩٦٥)، ج١، ص١٣٨.

(٩٧) ابن أبي الدينار، أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القرواني، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق: محمد شمام، ط٣، (تونس، ١٩٦٧)، ص١٦٤ ؛ فارس، المصدر السابق، ص٣٤.

(98) Lord Kinros,The Ottoman Centuuries, (The Rise and Fall of the Yurkish Empire), (New Yourk , 1977), p.221 .

(٩٩) ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص ١٦٤ ؛ المدني، المصدر السابق، ص٢٣٣.

(١٠٠) للمزيد من التفاصيل ينظر: الجبوري، المصدر السابق، ص١٤٢.

(١٠١) للتفاصيل ينظر: المدني، المصدر السابق، ص٢٨٠ . ٢٨١.

(١٠٢) للتفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص٢٨١. ٢٩٧.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص٣٨٥.

(١٠٤) فارس، المصدر السابق، ص٤٧.

(١٠٥) ينظر: الشناوي، المصدر السابق، ص ٩٢٤ . ٩٢٥.

(١٠٦) للمزيد من التفاصيل ينظر:

john Lynch , Spiain under the Habsbugs , Second Edition , vol.1 , (Nop , 1981) , p.224-227

(١٠٧) ينظر: الجبوري، المصدر السابق، ص٢٠٦.

(١٠٨) احمد بن أبي الضياف، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، (تونس، ١٩٦٣)، ص١٩.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص١٩.

(110) Andrw G.Hess , " The Moriscos: An Ottoman Fifth column in Sixteenth century Spain " , The American historical review , vol.LxxIv , Namber , 1968, p.15 ; P.S.Helm ,History of Europe 1450-1660) , (London , 1976) , p.158.

(١١١) جلال يحيى، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، (الإسكندرية، ١٩٨٩)، ص ص٤٣٠ . ٤٣١.

(١١٢) أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، (استانبول، ١٩٩٩)، ج١، ص ٤٤.

(113) H.G. Koenigsberger , " Western Europe and the power of Spain " , In R.B. Wernham (ed) , The New Cambridge modern history , vol.III , (Cambridge , 1968) , p.352.

(114) Sayyid Fayyaz Mahmud , The story of Islam , (London , 1965) , p.215 ; Helm ,op . cit , p.158 ;Rhea Marsh Smith ,Spain , A modern history , (Michigan , 1965), p.167.

(١١٥) ينظر:

REVT Milner , The Turkish Empire , (London , 1960) , p.129.

(116) Knapp, op . cit ,p.78.

(١١٧) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص١٩.

(١١٨) المدني، المصدر السابق، ص ص ٣٩٩ . ٤٠٠.

(١١٩) حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، (تونس، ١٩٧٦)، ص١٥٥ ؛ ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص٢١.

(١٢٠) المدني، المصدر السابق، ص ٤٠٠ ؛ فارس، المصدر السابق، ص٥٠.

(١٢١) فارس، المصدر السابق، ص٥٠ ؛ اوزتونا، المصدر السابق، ص٣٧٩.

(١٢٢) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص٢١.

(١٢٣) محمد عبد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد اثاوس ومحمد عجينة، (تونس، ١٩٨٠)، ص٦٦.

(124) Hess , op . cit ,p.17.

(١٢٥) النهروالي، المصدر السابق، ص٤٦٦.

(١٢٦) المدني، المصدر السابق، ص٤٠٠.

(١٢٧) النهروالي، المصدر السابق، ص ٤٧١ ؛ فارس، المصدر السابق، ص٥١ ؛

Fernanrd Braudel , The Mediterrance and Mediterranean World in the Age of Philip II , vol.II , Tranalated From the Franch by Sian Reynotds , (London , 1973) , p.360.

(١٢٨) فارس، المصدر السابق، ص٥١ ؛

Braudel , op . cit , p.356.

(١٢٩) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص٢٤٥ ؛ عبد الوهاب، المصدر السابق، ص١٥٧.

(١٣٠) المدني، المصدر السابق، ص ٤٠١.

(١٣١) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص٢٤ ؛ المدني، المصدر السابق، ص٤٠١.

(١٣٢) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص٢٤ ؛ عبد الوهاب، المصدر السابق، ص١٥٧. ١٥٨.

(١٣٣) المدني، المصدر السابق، ٤٠١ ؛ عبد الوهاب، المصدر السابق، ص١٥٨.

INTRODUCTION

The Ottomans , as an influential Islamic poewr appeared since the 16 th Century , reulized that they had the ersponsibikity of protecting large parts of the Arab region from East to West against the European – Persan danger. In fact , this was a reat threat began after the fall of Mumlul Kingdom in 1517 . As a matter of fact , the Ottoman Empire was able to dominate large areas from the Arab Countries . Yemen and Tunisia Were important parts of these countries , But the Ottoman Empire Was completely occupied with the European danger from One hand its conquests on the other. For this reason , the Ottoman Empire Was obliged to lose parts of these areas i.e.Yemen in the East and Tunisia in the West. Therefor , the Ottoman Empirs Was also obliged to restore these parts especially after the pareugese threat against the southern Arab Waters in the Arab Gulf in the East and the Spanish threat in Tunisia in thr Arab Western coust.

For these reasons , the Ottoman Empire prepared a maritime expedition leb by sinan Pasha , One of the most famous leaders in that time . Within Four years between 1568 – 1571 , he was able to restore the Ottoman domination on Yemen in spite of the difficulties and the resistence by the zeidists Who refused the Ottoman presence in Yemen.

It is important to state that in 1574 the Ottoman State sent sent a maritime expedition to Tunisia in order to save it from the Spanish presence . This expedition Was also led by Sinan Pasha and he Was able to restore Tunisia and expel the Spanish from its territeries .